

رسالة في "إبطال أحكام النجوم"

للفيلسوف البغدادي أبي القاسم عيسى بن علي

دراسة وتحقيق الدكتور سحبان خليفات

الجامعة الأردنية

الفلسفة الإسلامية وعلم أحكام النجوم:

ترمي هذه المقدمة إلى رسم الإطار الثقافي الذي تتدرج فيه الرسالة موضوع التحقيق، وذلك ببيان التطور التاريخي "لعلم النجوم" في الثقافة الإسلامية وفي حدود ما أسهم به الفلاسفة المسلمون. لقد حدد الفارابي مفهوم هذا العلم في كتابه "إحصاء العلوم" فقال: "أما علم النجوم فإن الذي يعرف بهذا الاسم علمان: أحدهما علم أحكام النجوم، وهو علم دلالات الكواكب على ما سيحدث في المستقبل، وعلى كثير مما هو الآن موجود، وعلى كثير مما تقدم. والثاني: علم النجوم التعليمي وهو الذي يعد في العلوم من التعاليم"^(١). وواضح من هذا أن الرسالة التي نقدم لها تدخل ضمن مؤلفات "علم أحكام النجوم".

ترجع عناية المسلمين بهذا "العلم"، فيما يقول نلينو، إلى أيام الخليفة العباسي

أبي جعفر المنصور، حيث "نقل أبو يحيى البطريق كتاب الأربع مقالات لبطليموس

(١) أبو نصر الفارابي (محمد بن محمد بن طرخان بن اوزلغ، ت ٣٣٩هـ / ٩٥٠م): إحصاء العلوم، تحقيق د. عثمان أمين، ط٣، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٨، ص١٠٢-١٠٣. وسيشار لهذا المصدر فيما بعد هكذا: الفارابي: إحصاء العلوم.

في صناعة أحكام النجوم^(٢). غير أن ابن النديم يقول عند حديثه عن "كتاب الأربعة": "نقل هذا الكتاب إبراهيم بن الصلت، وأصلحه حنين بن إسحق. وفسر المقالة الأولى، اوطوقوس، وجمع المقالة الأولى ثابت [بن قرّة]، وأخرج معانيها، وفسره عمر بن فرخان، وإبراهيم بن الصلت، والنزيري، والبتاني"^(٣).

لقد نسب إلى بطليموس كتاب آخر في "التنجيم" بعنوان "الثمرة". وقد لقي هذا الكتاب اهتماماً كبيراً لدى مثقفي القرن الرابع للهجرة وفلاسفته. فقد فسره أحمد ابن يوسف المصري المهندس^(٤)، والمعروف بابن الداية (والمتوفى بعد عام ٣٣٠هـ). كما تحدث عنه أبو سليمان المنطقي السجستاني في "المقابسات"، ونقل عنه أبو حيان التوحيدي في الكتاب المذكور صفحات عديدة.

أما مؤلفات ذروثيوس Dorotheus العديدة في التنجيم فقد نقلت أيضاً إلى العربية في ذات الفترة. "وهذه الكتب فسرها عمر بن الفرخان الطبري^(٥)"، وتولى إذاعتها ما شاء الله الذي "كان ... أوحد زمانه في علم الأحكام"^(٦).

(٢) كرلو نلينو: علم الفلك، تاريخه عند العرب في القرون الوسطى، روما، ١٩١١، ص ١٤٦. وسيشار لهذا المرجع فيما بعد هكذا: نلينو: علم الفلك. وقد ذكر كتاب بطليموس بعناوين متعددة: (١) كتاب في القضاء من النجوم على الحوادث (في النسخة التي ترجمها حنين بن إسحق، والموجودة في إحدى مكتبات فيرنسي في إيطاليا)، (٢) كتاب المقالات الأربع في القضايا بالنجوم على الحوادث (حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج ٢، طبعة القسطنطينية، ١٣١١هـ، ص ٤٩٣. وسيشار لهذا المصدر فيما بعد هكذا: حاجي خليفة: كشف الظنون). انظر - نلينو: علم الفلك - ص ٢١٧. (٣) كتاب بطليموس في القضاء على النجوم. (أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب - ابن النديم (ت بعد ٣٩٠هـ / ١٠٠٠م): الفهرست، تحقيق رضا تجدد، طهران، ١٩٧١، ص ٢٢٧. وسيشار لهذا المصدر فيما بعد هكذا: ابن النديم: الفهرست.

(٣) ابن النديم: الفهرست، ص ٣٢٧.

(٤) ابن النديم: الفهرست: ص ٣٢٨. وقد وضع ابن الداية كتاباً آخر عنوانه "أخبار المنجمين" (حاجي خليفة:

كشف الظنون، ج ١، ص ٦٣).

(٥) ابن النديم: الفهرست، ص ٣٢٨.

(٦) ابن النديم: الفهرست، ص ٣٣٣. ويحمل كثير من مؤلفات "ما شاء الله" ذات عناوين مؤلفات "ذروثيوس" التي

ذكرها ابن النديم. كما أنه قد نقل عنه عدة أقوال - فيما يقول نلينو - في مؤلفاته الموجودة "في ترجمة لاتينية

قديمة فقط". (نلينو: علم الفلك، ص ١٤٦).

واضح مما سبق أن "علم أحكام النجوم" قد حظي في القرنين الثاني والثالث للهجرة بمكانة عالية، دليل ذلك اهتمام المترجم الذائع الصيت، حنين بن إسحق، بإصلاح ترجمة ابن الصلت لكتاب بطليموس، وقيام الرياضي والمترجم المعروف، ثابت بن قرّة، بشرح المقالة الأولى من الكتاب. والحقيقة أن لثابت هذا كتاباً عنوانه "ترتيب العلم" جاء فيه: "وأما علم القضاء من النجوم، فقد اختلف فيه أهله اختلافاً شديداً وخرج فيه قوم إلى ادعاء ما لا يصحّ ولا يصدق بما لا اتصال له بالأمر الطبيعية، حتى ادعوا في ذلك ما هو من علم الغيب. ومع هذا فلم يوجد منه إلى زماننا هذا قريب من التمام، كما وجد غيره"^(٧).

لم تقتصر العناية بهذا العلم على المترجمين والرياضيين، بل تعدتها إلى الفلاسفة، إذ وضع الفارابي رسالة بعنوان "النكت فيما يصح وما لا يصح من أحكام النجوم" إلى جانب "عيون المسائل"^(٨)، وبيّن من عنوان الرسالة أن الاعتقاد بأحكام النجوم قد انتشر في الأمة بحيث أحس الفارابي بالحاجة إلى الحديث عن هذا "العلم".

فإذا وصلنا إلى عصر السجستاني ومسكويه وعيسى بن علي، وجدنا الفلاسفة مستغرقين في الحديث عن هذا العلم، والتأليف فيه. فابن الداية، صديق الوزير علي ابن عيسى بن الجراح، قد وضع تفسيراً لكتاب "الثمرة" المنسوب لبطليموس، مع أنه صاحب كتاب في المنطق؛ كما وضع "الحسن بن سوار، المعروف بأبي الخير .. كتاب الآثار المخبأة بالجو"^(٩). أما مسكويه فقد "ذكر في كتابه "مراتب العلوم وترتيب

(٧) ابن قيم الجوزية (أبو عبدالله، شمس الدين محمد بن أبي بكر، ت ٧٥١هـ / ١٣٥٠م): مفتاح دار السعادة ومنتشور ولاية العلم والإرادة، نشر محمود حسن ربيع، ط٢، مكتبة الأزهر، ١٩٣٩، ص٥١٧. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن القيم: مفتاح دار السعادة.

(٨) أبو النصر الفارابي: المجموع للمعلم الثاني، ط١، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٠٧، ص٦٥ - ٨٩.

(٩) أبو القاسم، رضي الدين، علي بن موسى بن جعفر بن محمد الطاووس الحسني (ت ٦٦٤ هـ): فرج الهموم في تاريخ علماء النجوم، منشورات المطبعة الحيدرية، النجف، ١٣٦٨هـ، ص٢٠٣. وسيشار لهذا المرجع فيما بعد هكذا: علي بن موسى: فرج الهموم.

السعادات" ما يدل على علمه بها [أي بالنجوم] والتنبيه على أنها دلالات على الحادئات" (١٠).

من الطبيعي، في ظل ما سبق، أن ينهك أفراد مدرسة السجستاني الفلسفية في معالجة موضوعات "علم أحكام النجوم". وقد أورد أبو حيان التوحيدي في "المقابسات" الكثير من أقوال أفراد هذه المدرسة في المسألة، بل خصص إحدى المقابسات لتسجيل حوار جرى بينهم فيها، ولهذا الحوار أهمية كبرى في تصوير الحياة العقلية في تلك الفترة.

من أبرز حضور "مجلس أبي سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني"، إلى جانب التوحيدي، أفراد مدرسته: "أبو زكريا الصيمري، وأبو الفتح النوشجاني، وأبو محمد العروضي، والمقدسي، والقومسي، وغلّام زحل. وكل واحد من هؤلاء إمام في شأنه، وفرد في صناعته". (١١)

انعقد المجلس وكانت القضية المطروحة على بساط البحث هي العلة في كون العلوم ذات فائدة في تغيير الأحوال، إذ "يقصد بالطب استدامة الصحة ما دامت الصحة موجودة، وصرف العلة إذا كانت العلة عارضة، وكذلك النحو ... وكذلك الفقه .. وكذلك الشعر ... وكذلك الحساب ... به صحت المعاملة، وقامت الدولة، وحرس الملك، وجبي المال، وأمن الغبن" (١٢). أما علم النجوم "فإن صاحبه إن استقصى وبلغ الحد الأقصى في معرفة الكواكب، وتحصيل سيرها واقترانها، ورجوعها،

(١٠) علي بن موسى: فرج الهموم، ص ٢٠٥.

(١١) أبو حيان التوحيدي (علي بن محمد بن العباس، ت حوالي ٤٠٠هـ / ١٠١٠م): المقابسات، تحقيق محمد توفيق حسين، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٧٠، ص ٥٧، ويشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا، التوحيدي: المقابسات.

(١٢) التوحيدي: المقابسات، ص ٥٨ - ٥٩.

ومقابلتها، وتربيعها وتثليثها ... فإنه لا يستطيع البتة قلب شيء عن شيء، ولا صرف أمر إلى آخر، ولا تبعيد حال قد دنت، ولا نفي ملامة قد أُلِّمت" (١٣).

يقول أحد الحضور: "إِعْلَمْ أن العلم حق ولكن الإصابة بعيدة. وليس كل بعيد محالاً، ولا كل قريب صواباً ... لاشتباك هذا العالم السفلي بذلك العالم العلوي ... وإذا صح هذا الاتصال والتشابك ... صح التأثير من العلوي، وقبول التأثير من السفلي، بالمواصلات الشعاعية، والمناسبات الشكلية، والأحوال الخفية والجلية" (١٤).

يتساءل فرد آخر من الحضور قائلاً: "هل تصح الأحكام أم لا تصح؟. فكان محصول الجواب أن قال قائل: لا تصح بأسرها، ولا تبطل من أصلها" (١٥). وسر الصحة "أن هذا العالم السفلي ... متقبل لذلك العالم العلوي، شوقاً إلى كماله" (١٦) "وقال آخر: وإنما وجب هذا التقبل والتشبه لأن وجود هذا العالم وجود متهافت ... فكان بهذا الوجه فقيراً إلى ما يمدده ويشده" (١٧).

يرجع متحدث آخر من الحضور المنجمين إلى أنه "قد يغفل ... اعتبار حركات كثيرة من أجرام مختلفة ... ومن الحكمة في هذا الإغفال، أن الله تقدس اسمه يتم بذلك القدر المُعْقَل القليل الذي لا يؤبه له .. أمراً لم يكن في حساب الخلق" (١٨).

يرجع النوشجاني الخطأ في أحكام المنجمين إلى أنه "يكون في طالعه أن يصيب ذلك الحكم" أو "أن لا يصيب منجمه في ذلك الحكم ... فقال أبو سليمان: ما أحسن هذا" (١٩).

(١٣) التوحيدي: المقابسات، ص ٦٠ - ٦١.

(١٤) التوحيدي: المقابسات، ص ٦٤ - ٦٥.

(١٥) التوحيدي: المقابسات، ص ٦٥.

(١٦) التوحيدي: المقابسات، ص ٦٦.

(١٧) التوحيدي: المقابسات، ص ٦٦ - ٦٧.

(١٨) التوحيدي: المقابسات، ص ٦٧.

(١٩) التوحيدي: المقابسات، ص ٦٧ - ٦٨.

واضح تماماً أن القوم يؤمنون - من حيث المبدأ - بإمكانية معرفة المستقبل عن طريق النجوم وجل خلافهم في سهولة هذا "العلم" أو صعوبته أو حكمة الله في طي معظم أحكامه(٢٠). يقول العروضي: "قد يقوى هذا العلم في بعض الوقت حتى يشغف به، ويدان بتعلمه، بقوة سماوية. فيكثر الاستنباط والبحث وتشتد العناية والفكر، فتغلب الإصابة حتى يزول الخطأ، وقد يضعف هذا العلم في بعض الدهر فيكثر الخطأ فيه"(٢١). أما أبو القاسم غلام زحل فيتحدث عن أحكام النجوم قائلاً: إن "صحتها وبطلانها متعلقان بآثار الفلك، وقد يقتضي شكل الفلك في زمان أن لا يصح منها شيء وإن غيص على دقائقها وبلغ إلى أعماقها ... وقد يتحول هذا الشكل في وقت آخر إلى أن يكثر الثواب فيها أو الخطأ أو يتقاربان(٢٢)". وفي النهاية يقف أبو سليمان السجستاني، رئيس المدرسة، قائلاً: "هذا أحسن ما يمكن أن يقال في هذا الباب"(٢٣).

لم تكن عبارة السجستاني السابقة مجرد مجاملة للحضور، فقد نقل التوحيدي عنه قوله: إن "الكهانة قوة إلهية توجد في شخص بعد شخص، بسهام سماوية، وأسباب فلكية، وأقسام علوية، فإذا توسطت ... يكون ما يبدو بها مشيراً إلى غيب أمور الدنيا وإلى غيب أمور الآخرة(٢٤)". "فعلى هذا قوة المنجم متبعة لآثار الكواكب تتبعاً ضعيفاً، لأن الآلة لا تساعده، والصبر لا يوافيه ... وليست قوة الكاهن كذلك، أعني ليست بتتبع بل هي كالإلقاء والوحي ... فإن اجتمعت القوتان ... ظهر كل أمر عجيب"(٢٥).

(٢٠) التوحيدي: المقابسات، ص ٦٩.

(٢١) التوحيدي: المقابسات، ص ٧٧.

(٢٢) التوحيدي: المقابسات، ص ٧٨. لقد تتلمذ غلام زحل في التنجيم على محمد بن علي التنوخي والد مؤلف "شوار المحاضرة"، وصديق الوزير علي بن عيسى الجراح. (علي بن موسى: فرج الهموم، ص ١٦٧).

(٢٣) التوحيدي: المقابسات، ص ٧٩.

(٢٤) التوحيدي: المقابسات، ص ٢٠٩.

(٢٥) التوحيدي: المقابسات، ص ٢٠١.

لم يقف الاعتقاد بأحكام النجوم عند من ذكرنا من المترجمين والرياضيين والفلاسفة، فقد نقل **الزمخشري** نفسه في كتابه "ربيع الأبرار" حكايات أبي معشر البلخي^(٢٦) المنجم مثلما نقلها **محمد بن عبد الملك الهمداني** في تاريخه^(٢٧). وتعدى الأمر إلى الأطباء حيث آمن كثير منهم بوجود علاقة بين الطب والنجوم، ومثل هذا اعتقاد "**علي بن رضوان المصري** (المتوفى سنة ٤٥٣هـ / ١٠٦١م)، و**ابن بطلان** (المتوفى بعد سنة ٤٥٥هـ / ١٠٦٣م) أن صناعة الطب العملي تنتفع انتفاعاً عظيماً بمعرفة أحكام النجوم^(٢٨)". أما ابن ملكا، أوجد الزمان أبو البركات هبة الله بن علي البلدي البغدادي (ت ١١٦٥م)، فقد وجد نفسه مضطراً للرد على المنجمين واعتقاداتهم السخيفة^(٢٩).

ليس سهلاً على أي مفكر، في القرن الرابع الهجري، أن يقف في وجه تلك الموجة اللاعقلانية الكاسحة التي وصفناها. فمدرسة السجستاني تتكرر لتعاليم الفارابي، في هذا المجال، ويقع أفرادها ضحايا الخرافة. هنا نجد فيلسوفاً، خرج على المؤلف، وتصدى بكل قوة لتيار التنجيم والشعوذة، تصدياً لا يتكرر من بعده إلا على يد أبي العلاء المعري، ذلك هو عيسى بن علي بن الجراح، تلميذ يحيى بن عدي المنطقي بالتلقي المباشر، وتلميذ الكندي وأبي زيد البلخي بالدرس والاعتقاد.

سيرة الفيلسوف ومكانته في الفلسفة الإسلامية:

لم يكن الباحثون يعرفون عن هذا الفيلسوف أي شيء غير اسمه "عيسى بن علي". ذلك أن نيكولاس ريشر - وهو أفضل من درس تطور علم المنطق في

(٢٦) علي بن موسى: فرج الهموم، ص ١٦٠. (٢٧) علي بن موسى: فرج الهموم، ص ١٦١ - ١٦٢.

(٢٧)

(٢٨) نلينو: علم الفلك، ص ٦٧ - ٦٨.

(٢٩) ابن قيم الجوزية: مفتاح دار السعادة، ص ٥٠٧، حيث ينقل نصاً لأبي البركات من كتاب "التعبير" يرد فيه

على المنجمين.

الإسلام- قد عده "نسطورياً"^(٣٠)، ويبدو أن الباحثين العرب، والمستشرقين معاً، قد قبلوا هذا القول على أنه حقيقة نهائية لا مرأى فيها. لهذا لم يعد بوسعهم الربط بين عيسى بن علي (النسطوري) هذا وبين "عيسى بن علي" الذي ذكره أبو حيان التوحيدي ونقل بعض أقواله في عدد من كتبه، مثلما ذكره القفطي والشهرستاني والشهرزوري وغيرهم. كما لم يعد بإمكانهم الإفادة مما جاء عنه في كتب التراجم. ومن باب أولى فإن دعوى نسطوريته قد صارت حجاباً كثيفاً حال دون التفتيش عن ترجمة له في كتب علماء الحديث. ولهذا وجدنا باحثاً موسوعياً يقرر حديثاً أن لعيسى "مؤلفات لم يصلنا منها أو عنها شيء في المصادر"^(٣١).

ولكن ما أن تتحى دعوى ريشر جانباً، إذ لم يقدم أي دليل يثبتها، ونبدأ بالبحث عن حقيقة هذه الشخصية في كتب التراجم وعلماء الحديث، حتى تصير شخصية واضحة، بارزة في عصرها، وذات مكانة عالية في تاريخ الفلسفة الإسلامية.

ولد أبو القاسم، عيسى بن علي بن داود بن الجراح، في بغداد عام ٣٠٢هـ/ ٩١٤م، وتوفي في المدينة نفسها عام ٣٩١هـ/ ١٠٠١م. وكان والده علي ابن عيسى بن الجراح، محدثاً صادقاً، وكاتباً بليغاً، تولى الوزارة ثلاث مرات للخليفة المقتدر^(٣٢)، ورابعة للظاهر^(٣٣)، وقد ترك مؤلفات قيمة في "معاني القرآن" و"سياسة المملكة وسير الخلفاء". وعرف عنه محبته للعلوم العقلية اليونانية^(٣٤).

(٣٠) Rescher (N.): The Developmeth of Arabic Logic, University of Pittsburgh Press, 1964, p.138.

كل ما ذكره "ريشر" هو التالي: "كان عيسى بن علي نسطورياً وتلميذاً ليحيى بن عدي في المنطق. كتب معجماً سريانياً - عربياً. وينبغي ألا يخلط بينه وبين أشخاص آخرين مختلفين، كان أحدهم تلميذاً لحنين بن إسحق ويحمل ذات الاسم. ولا توجد لدينا أية معلومات فيما يتعلق بكتابات عيسى بن علي المنطقية". (المصدر السابق، ص ١٣٨). والحقيقة أن "ريشر" نفسه قد وقع ضحية الخلط الذي حذر منه. انظر في هذا كتابنا "مقالات يحيى بن عدي الفلسفية - دراسة وتحقيق (قيد النشر)، ص ٢٢-٢٣.

(٣١) د. عبد الأمير الأعسم: أبو حيان التوحيدي في كتاب المقابسات، ط١، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٩٨٠، ص ٢٥٢.

(٣٢) ابن النديم: الفهرست، ص ١٤٢.

نشأ الابن "عيسى" وقد اكتسب ميول والده العقلية، فقد حصل ثقافة ممتازة، على يد أبي بكر بن دريد، صاحب "الجمهرة في علم اللغة"^(٣٥)، ودراسة دينية متعمقة في علمي "الحديث" و"التفسير"، على أيدي "البغوي"، وابن أبي داود السجستاني، وابن صاعد^(٣٦)، وابن مجاهد، وغيرهم. وقد نبغ في هذه العلوم كلها حتى عدّ حجة في اللغة والأدب^(٣٧)، وصاحب مدرسة في علم الحديث^(٣٨).

أما في مجال العلوم العقلية فقد درس "علم الكلام" وكان على صلة باللغوي المتكلم أبي سعيد السيرافي، كما درس الفلاسفة اليونانية، وبخاصة فلسفي أرسطوطاليس وأفلاطون، والمنطق على يد تلميذ الفارابي النابغة، يحيى بن عدي^(٣٩). وكان يحضر مجالسه ويجتمع بفلاسفة العصر كابن الخمار، وابن زرعة، وأبي سليمان المنطقي السجستاني. وتدل مقارنة الشذرات التي وصلتنا من مؤلفاته

(٣٣) الحافظ الذهبي (شمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان): سير أعلام النبلاء، ج ١٥، تحقيق شعيب الأرنؤوط وإبراهيم الزبيق، ط ١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٣، ص ٢٩٨. وسيشار لهذا المصدر فيما بعد هكذا: الحافظ الذهبي: سير أعلام النبلاء.

(٣٤) ابن النديم: الفهرست، ص ١٤٢، وكذلك:

Harold Bowen: The Life and times of Ali Ibn Isa, Cambridge University Press, 1927, p.78.

(٣٥) الشهرزوري (شمس الدين محمد بن محمود): نزهة الأرواح وروضة الأفراح في تاريخ الحكماء والفلاسفة، ج ٢، تحقيق خورشيد أحمد، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ١٩٧٦، ص ١٥٠. وسيشار لهذا المصدر فيما بعد هكذا: الشهرزوري: نزهة الأرواح.

(٣٦) ابن النديم: الفهرست، ص ٢٨٩.

(٣٧) الشهرزوري: نزهة الأرواح، ج ٢، ص ١٥٠، وكذلك عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، ج ٨، مكتبة المثنى، ودار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٥٧، ص ٢٨.

(٣٨) ممن تلمذ عليه في الحديث: أبو القاسم الأزهري (٣٥٣هـ - ٤٣٩هـ)، وأبو بكر الدقاق المعروف بابن الخاطبة. انظر في هذا الحافظ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٥، ص ٥٧٨، ٥٩٣. وياقوت الحموي: (أبو عبدالله، شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي): معجم الأدباء، ج ٦، تحقيق د. س. مرجليوث، ط ٢، مطبعة هندية بالموسكي، القاهرة، ١٩٣٠، ص ٣٣٦.

(٣٩) القسطنطيني: (أبو الحسن جمال الدين علي بن يوسف): تاريخ الحكماء، تحقيق جوليس ليبيرت، لبيزغ، طبعة بالأوفست، مكتبة المثنى بغداد، ومؤسسة الخانجي، بمصر، ١٩٠٣، ص ٢٤٥.

الفلسفية بمؤلفات فلاسفة ذلك العصر، وما قبله، "على معرفة عميقة بكتابات كل من الكندي، وأبي زيد أحمد بن سهل البلخي، الذي نرجح .. أنه الفيلسوف الذي نسج عيسى بن علي على منواله" (٤٠)، إذ أخذ عنه بعض آرائه في "النفس" و"العلم"، مثلما أفاد من كتابات الكندي.

اشتهر عيسى بن علي بدرأيته في العلوم العقلية، حتى عدّ "أوحد زمانه في المنطق" (٤١)، رغم أنه معاصر لمناطقة كبار مثل يحيى بن عدي، وأبي سليمان السجستاني، وقيل بأنه كان "كبيراً في علم الأوائل" (٤٢)، أي الفلسفة اليونانية. وقد مكنته هذه المعرفة من التصدر للتدريس حيث "أفاد جماعة من الطلبة، وناظر، وحقق" (٤٣). وقام بنقل بعض المؤلفات الفلسفية من السريانية إلى العربية، وبلغت ترجماته الغاية في الإتقان، إذ وصفه معاصروه بأنه كان "حجة في النقل والترجمة، والتصرف في فنون اللغات" (٤٤). ونزيد العبارة الأخيرة وضوحاً فنقول: إن عيسى بن علي قد أتقن الفارسية، ووضع فيها (٤٥) كتاباً، إلى جانب إتقانه اللغتين السريانية والعربية. يضاف إلى هذا كله كتابه الضخم "تعليقات على شرح يحيى النحوي لكتاب أرسطو "السماع الطبيعي" في عشرة مجلدات" (٤٦)، ورسالته في "إبطال أحكام النجوم" التي ذكرها البيهقي خلال ترجمته للفلكي المعروف بعبدةالعزيز بن عثمان القبيصي.

(٤٠) انظر في هذا بحثنا "عيسى بن علي: سيرته وآراؤه الفلسفية"، مخطوط، ص ٧.

وهو دراسة مفصلة لسيرة الفيلسوف، ومؤلفاته، ومصادره الفلسفية اليونانية والإسلامية، وآرائه في نظرية المعرفة، والأخلاق، والسياسة، والطبيعة، إضافة إلى الكشف عن مكانته في تاريخ الفلسفة الإسلامية. وسينشر هذا البحث قريباً.

(٤١) ابن النديم: الفهرست، ص ١٤٣.

(٤٢) الشهرزوري: نزهة الأرواح، ج ٢، ص ١٥٠.

(٤٣) القفطي: تاريخ الحكماء، ص ٢٤٥.

(٤٤) أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، ج ١، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، بلا تاريخ، ص ٣٦ - ٣٧.

(٤٥) ابن النديم: الفهرست، ص ١٤٣.

(٤٦) القفطي: تاريخ الحكماء، ص ٢٤٤ - ٢٤٥.

فقد عدد مؤلفاته، وقال إن من بينها "نقض لرسالة عيسى بن علي في إبطال أحكام النجوم" (٤٧). كما وجدت ابن قيم الجوزية يشير إليها، ويذكر نصها، ويقول إنها في الرد على المنجمين وإبداء تناقضهم (٤٨).

تحليل رسالة عيسى بن علي:

عثرنا على نص رسالة الفيلسوف "في إبطال أحكام النجوم"، ونحن نقرأ في كتاب ابن قيم الجوزية "مفتاح دار السعادة"، حيث ذكر المؤلف أنه سيورد نص رسالة عيسى بن علي "بلفظها، وإن تضمنت بعض الطول والتكرار". (٤٩) كما بين أنه سيتعقب كلامه "أو بعض كلامه بتقرير ما يحتاج إلى تقرير، وبسؤال يورد عليه، ويطعن به على كلامه، ثم بالجواب عنه" (٤٩). ومن هنا تداخل كلام الفيلسوف مع كلام ابن القيم؛ وإن ظل الحد الفاصل بينهما واضحاً، فابن القيم يبتدئ كلامه في العادة بكلمة (قلت). أو يعقب بنص يقتبسه من كتب الفارابي أو ابن سينا، أو فخر الدين الرازي أو أبي البركات البغدادي، مما يتبين به بوضوح أن الكلام ليس جزءاً من نص الرسالة. فإذا طال الاستطراد عاد ابن القيم إلى كلام الفيلسوف من خلال عبارة "قال صاحب الرسالة" وأمثالها.

ويفتتح عيسى بن علي رسالته بالإشارة إلى "ما قد لهج به وجوه أهل زماننا من النظر في الأحكام والنجوم. وتصديق كل ما يأتي به من ادعى أنه عارف بها من علم الغيب". ونرى في هذه العبارة إشارة واضحة إلى أعضاء مدرسة السجستاني ممن نقلنا أقوالهم، فهم قد لهجوا بهذا الموضوع، وهم (وجوه) أهل ذلك العصر. ويفهم من

(٤٧) ظهير الدين البيهقي: تاريخ حكماء الإسلام، تحقيق محمد كرد علي، ط٢، مطبعة المفيد، دمشق، ١٩٧٦، ص ٩٢.

(٤٨) ابن قيم الجوزية: مفتاح دار السعادة، ص ٤٨٧.

(٤٩) ابن قيم الجوزية: مفتاح دار السعادة، ص ٤٨٧.

هذا الموقف لعيسى أنه لم يكن - حين كتب رسالته- بعد عام ٣٧٠هـ، على وفاق مع أعضاء هذه المدرسة، إذ نزع في أواخر حياته المديدة إلى علم الحديث والقرآن (٥٠).

تتجلى نزعة عيسى بن علي العقلية، وتحليله الموضوعي، في طريقة تناوله لموضوع أحكام النجوم. إنه يقول: إنني "أسلم لهم أنها تؤثر تأثيراً ما يجرى على الأمر الطبيعي .. مثل أن يكون النبات ينمو، ويقوى، ويتكامل، وينضج ثمره بالشمس والقمر". أما تأثير النجوم في الأحداث التي تخص الإنسان فمنكر عنده. وتتجلى في الرسالة الروح الدينية للمؤلف واضحة إلى جانب قدرة كبيرة على المحاكمة العقلية، فكثيراً ما يرد القول مستنداً إلى عدم وجود "نص من كتاب الله .. ولا من سنة رسوله". وتظهر في رسالته دلائل واضحة على معرفته الموسوعية بعلم الجغرافيا، والنبات، والحيوان، والفلك، حيث يذكر فيها أسماء عدد كبير من النباتات، إضافة إلى ملاحظات بارعة حول سلوك النبات والحيوان، وتأثرهما بالعوامل الطبيعية، كالحرارة، والرطوبة، والضوء.

إن للرسالة التي نقدم لها أهمية أخرى تتمثل في تعريفنا بموقف الفيلسوف - في أواخر عمره- من أعضاء مدرسة السجستاني. فقد ذكر ابن القيم: إن عيسى بن علي قد "كتبها لما بصره الله رشده، وأراه بطلان ما عليه هؤلاء الضلال، الجهال، كتبها نصيحة لبعض إخوانه"^(٥١). وبالنظر إلى معرفة عيسى بأعضاء الجماعة الفلسفية في بغداد، ونقل التوحيدي في (المقابسات) لنص إحدى محاوراتهم حول أحكام النجوم، فإن من السهل أن ندرك أن فيلسوفنا، كان يعالج، في هذه الرسالة، واحدة من القضايا التي شغلت الفكر العربي - الإسلامي، في بداية فترة الانحدار، متخذاً منها موقفاً معارضاً لموقف الجماعة.

(50) انظر قول ابن قيم الجوزية في المسألة لاحقاً.

(٥١) ابن قيم الجوزية: مفتاح دار السعادة، ص ٤٨٧.

تتألف رسالة عيسى "في إبطال أحكام النجوم" من مقدمة يبيّن فيها الغرض من تأليف الرسالة وما ستشمل عليه من موضوعات، مثل "اختلافهم في أصول الأحكام... وقبيح اعتقادهم، وما يستدل به من طريق النظر والقياس على ضعف مذهبهم". ويقول المؤلف إنه لن يكون "مستعملاً للتحامل على من أثبت تأثير الكواكب في هذا العالم، وترك إنصافهم كما فعل قوم ردوا عليهم. بل أسلم لهم أنها تؤثر تأثيراً ما يجرى على الأمر الطبيعي".

أما القسم الأول فيتضمن ذكر اختلافهم في الأصول، وكيف تؤثر النجوم في أحداث الطبيعة وأشخاص الإنسان. وهنا يذكر آراء بعض النجوميين كبطليموس ودورثيوس، وانطيقوس وذيسموس.

وينتقل بعد هذا إلى ذكر ما يستشع من أقوالهم ويستدل به على مناقضتهم. ومن ذلك اختلاف أحكامهم وتناقض عللها، وتضارب تفسيراتهم، وفساد احتجاجهم لها بما قالته الفلاسفة في أمور الفلك. ويبدو أن عيسى قد ضمن في رسالته، هاهنا، نصاً أو ملخصاً لما كتبه أبو معشر الفلكي، وغيره ممن بيّن أثر العوامل الجغرافية على النبات والحيوان والإنسان، وأثر القمر على ظاهرة المد، حيث وصفها وصفاً شاملاً، دقيقاً وملفتاً للنظر.

هنا يتدخل ابن القيم - كما سبق أن فعل - ليعرض وجهة نظر الإسلام، ويثبت رأي أبي الوفاء بن عقيل الحنبلي، كما ينقل نصاً نادراً لأبي البركات البغدادي من كتاب ذكر أن اسمه "التعبير" إضافة إلى نصوص أرسطية من كتاب "السماع الطبيعي"، ونص من كتاب بطليموس "الأربعة" مشروحاً.

وفي الجزء الأخير من الرسالة يذكر الفيلسوف مجملاً من احتجاج النجوميين والاحتجاج عليهم. وهذا الجزء قصير إلى درجة توحى بأن الرسالة ناقصة، وفيه مناقشة لأحكام النجوميين، ورد لفهمهم الفاسد لآيات القرآن، مما أرادوا أن يموهوا به على الناس، مشروعية علمهم واعتراف الإسلام به. والآن إلى نص عيسى بن علي.

"رسالة في إبطال أحكام النجوم"

(بسم الله الرحمن الرحيم) (٥٢)

عصمك الله من قبول المحالات، واعتقاد ما لم تقم عليه الدلالات (٥٣)، وضاعف لك الحسنات، وكفاك المهمات. بمته ورحمته. كنت أدام الله توفيقك وتسديك [قد] ذكرت لي اهتمامك بما قد لهج به وجوه أهل زماننا، من النظر في الأحكام والنجوم، وتصديق كل ما يأتي [به]، من ادعى أنه عارف بها، من علم الغيب الذي تفرد الله سبحانه وتعالى به، ولم يجعله لأحد من الأنبياء والمرسلين، ولا ملائكته المقربين، ولا عباده الصالحين، من معرفة طويل الأعمار، وقصيرها، وحميد العواقب، وذميمها، وسائر ما يتجدد ويحدث، ويتخوف، ويتمنى. وسألنتي (٥٤) أن أعمل كتاباً أذكر فيه بعض ما وقع من اختلافهم في أصول الأحكام الدالة على وهمهم، وقبح اعتقادهم، وما يستدل به من طريق النظر والقياس، على ضعف مذهبهم، وألخص ذلك، وأختصره، وأقربه، بحسب الوسع والطاقة، فوعدتك بذلك، وقد ضمنته كتابي هذا، والله أسأل عوناً على ما قرب منه، وتوفيقاً لما أزلف لديه، إنه قريب مجيب، فعال لما يريد.

لست مستعملاً للتحامل على من أثبت تأثير الكواكب في هذا العالم، وترك انصافهم - كما فعل قوم ردوا عليهم - فإنهم دفعوهم عن أن يكون لها تأثيراً البتة،

(٥٢) سبق نص الرسالة، قول ابن قيم الجوزية: "ورأيت لبعض فضلائهم، وهو أبو القاسم عيسى بن علي بن عيسى، رسالة بليغة في الرد عليهم، وإبداء تناقضهم، كتبها لما بصّره الله رشده، وأراه بطلان ما عليه هؤلاء الضلال الجهال، كتبها نصيحة لبعض إخوانه، فأحبيت أن أوردتها بلفظها، وإن تضمنت بعض الطول والتكرار، وأتعقب بعض كلامه، بتقرير ما يحتاج إلى تقرير وسؤال يورد عليه، ويطعن به على كلامه، ثم بالجواب عنه، ليكون قوة للمسترشد، وبياناً للمتخير، وتبصرةً للمهتدي". وبيبدأ النص من الصفحة ٤٨٧ من الكتاب.

(٥٣) في الأصل الدلات.

(٥٤) في الأصل: وسألني.

غير وجود الضياء في المواضع التي تطلع فيها الشمس والقمر وعدمه فيما غابا عنه، وما جرى هذا المجرى، بل أسلم لهم أنها تؤثر تأثيراً ما يجرى على الأمر الطبيعي، مثل أن يكون البلد القليل العرض مزاجه يميل عن الاعتدال إلى الحر واليبس، وكذلك مزاج أهله ضعيف وألوانهم سود وصفرة، كالنوبة والحبشة، وأن يكون البلد الكثير العرض، مزاجه يميل عن الاعتدال إلى البارد والرطوبة، وكذلك مزاج أهله، [ضعيف]، وأجسامهم عبلية، وألوانهم بيض، وشعورهم شقر، مثل الترك والصقالبة. ومثل أن يكون النبات ينمو، ويقوى ويتكامل، وينضج ثمره بالشمس والقمر، فإن أهل الصحراء ومن يعاينها^(٥٥) مجمعون على أن القثاء تطور، وتغلظ بالقمر. وقد شاهدت غير شجرة كبيرة حاملة من التين والتوت وغيرهما، فما قابل الشمس منها أسرع نضج الثمر الكائن فيه، وما خفي منها عنها بقي ثمره فجاً، وتأخر إدراكه. ومثال ذلك ما يشاهد^(٥٦) من حال الريحان الذي يقال له اللينوفر^(٥٧)، وحال الخبازي^(٥٨)، وورق الخطمي^(٥٩)، والأذريون^(٦٠)، وأشياء كثيرة من النبات، فإننا نراه يتحرك ويفتح مع طلوع الشمس، ويضعف إذا غابت، لأن هذه أمور محسوسة.

(٥٥) في الأصل: يعاينها.

(٥٦) في الأصل: شاهد.

(٥٧) اللينوفر: ويقال له أيضاً اللينوفر. "ضرب من النبات ينبت في المياه الراكدة، له أصل كالجزر، وساق ملساء تطول بحسب عمق الماء، فإذا ساوت سطحه أوقفت وأزهرت".

(٥٨) الخبازي ويقال لها كذلك "الخبازة": بقلة معروفة من فصيلة الخبازيات، مستديرة الورق، يرغبون فيها لخصائصها المليئة. وتؤكل مطبوخة، ويتداوى بها".

(٥٩) في الأصل: الخطمي، والخطمي "زهرة من فصيلة الخبازيات، له ساق طويلة مستقيمة تحمل أزهاراً جميلة حمراء وبيضاء .. يعيش في المواضع الرطبة. يزرع أحياناً لفوائده الطبية، وهو يستعمل كملين".

(٦٠) في الأصل: الأذريون. والأذريون: "زهرة من المركبات الانبوية، برتقالي اللون، يكثر على شواطئ المتوسط، يزرع في الحدائق".

وليس الكلام في هذا التأثير كيف هو، وعلى أي سبيل يقع، فما يليق بغرضنا ههنا، فلذلك أدعه. فأما ما يزعمونه فيما عدا هذا من أن النجوم توجب أن يعيش فلان كذا^(٦١) سنة، وكذا^(٦١) شهراً، وينتهون في التحديد إلى جزء من ساعة، وأنها^(٦٢) تدل على تقليد رجل بعينه الملك، وتقليد آخر بعينه الوزارة، وطول مدة كل واحد منهما في الولاية وقصرها، وما فعله الإنسان، وما يفعله في منزله، وما يضمه في قلبه، وما هو متوجه فيه من حاجاته، وما هو في بطن الحامل، والسارق، ومن هو، والمسروق، وما هو، وأين هو، وكميته، وكيفيته، وما يجب بالكسوف، وما يحدث معه، والمختار من الأعمال في كل يوم، بحسب اتصال القمر بالكواكب من أن يكون هذا اليوم صالحاً للقاء الملوك، والرؤساء، وأصحاب السيوف، وهذا يوم محمود للقاء الكتاب والوزراء، وهذا اليوم محمود للقاء القضاة، وهذا اليوم محمود لأمر النساء، وهذا اليوم محمود لشرب الدواء، والفسد، والحجامة، وهذا اليوم محمود للعب الشطرنج والنرد، وغير ذلك فمحال أن يكون معلوماً عن طرق الحس.

وليس [هناك] نص من كتاب الله، بل قد نصّ الله سبحانه وتعالى فيه على بطلانه بقوله تبارك وتعالى: (قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ)^(٦٣) ولا من سنة رسول الله ﷺ، بل قد جاء عنه ﷺ أنه قال: "من أتى عرافاً أو كاهناً أو منجماً، فصدّقه بما يقول، فقد كفر

(٦١) في الأصل: كلمة "كذا" مكررة.

(٦٢) في الأصل: وأن يدل.

(٦٣) سورة "النمل"، الآية ٦٥.

(64) جاء في صحيح مسلم: "عن بعض أزواج النبي ﷺ قال: من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة الصحيح، ج٧، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، بلا تاريخ، ص٣٧. وكذلك صحيح مسلم بشرح النووي، ج١٤، ط١، المطبعة المصرية، بالأزهر، القاهرة، ١٩٣٠، ص٢٢٧.

بما أنزل على محمد (ﷺ). "ولا ها هنا ضرورة تدعو إلى القول به، ولا هو أول في المعقول، ولا يأتون عليه ببرهان ولا دليل مقنع. وهذه هي الطرق التي تثبت بها الموجودات، وتعلم بها حقائق الأشياء، ولا طريق ها هنا غيرها، ولا شيء لأحكام النجوم منها.

وأنا أبتدئ الآن بوصف جملة من اختلافهم في الأصول، التي يبنون عليها أمرهم، ويفرغون عنها أحكامهم. وأذكر المستبشع من أقوالهم، وقضاياهم، وظاهر مناقضاتهم، ثم آتي بطرفٍ من احتجاجهم، والاحتجاج عليهم، والله الموفق للصواب بفضله.

ذكر اختلافهم في الأصول

زعموا أن الخير والشر، والإعطاء والمنع، وما أشبه ذلك، يكون في العالم بالكواكب، وبحسب السعود منها والنحوس، وعلى حسب كونها من البروج الموافقة، والمنافرة لها، وعلى حسب نظر بعضها إلى بعض، من التسديس، والتربيع، والتثليث، والمقابلة. وعلى حسب محاسبة بعضها بعضاً، وعلى حسب كونها في شرفها، وهبوطها ووبالها.

ثم اختلفوا على أي وجه يكون ذلك. فزعم قوم منهم أن فعلها بطبائعها. وزعم آخرون أن ذلك ليس فعلاً لها، لكنها تدل عليه بطبائعها. وزعم آخرون أنها تفعل بالاختيار لا بالطبع، إلا أن السعد منها لا يختار إلا الخير، والنحس منها لا يختار إلا الشر. وهذا بعينه نفى للاختيار، فإن حقيقة القادر المختار [هي] القدرة على فعل أي الضدين شاء، وترك أيهما شاء. وزعم آخرون أنها لا تفعل باختيار، بل تدل باختيار. وهذا كلام لا يعقل معناه، إلا أنني ذكرته لما كان مقولاً.

(64) جاء في صحيح مسلم: "عن بعض أزواج النبي ﷺ قال: من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة الصحيح، ج ٧، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، بلا تاريخ، ص ٣٧. وكذلك صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١٤، ط ١، المطبعة المصرية، بالأزهر، القاهرة، ١٩٣٠، ص ٢٢٧.

واختلفوا فقالت فرقة: من الكواكب ما هو سعد، ومنها ما هو نحس. وهي تسعد غيرها وتتحسه. وقالت فرقة: هي في أنفسها طبيعة واحدة، وإنما تختلف دلالتها على السعد والنحس، وإن لم تكن في أنفسها مختلفة، واختلفوا [أيضاً] فقال قوم إنها تؤثر في الأبدان والأنفس جميعاً. وقال الباقر بل في الأبدان دون الأنفس. واختلف رؤساؤهم بطليموس ودورثيوس^(٦٥) وانطيقوس^(٦٦) وذيسموس^(٦٧) وغيرهم من علماء الروم والهند وبابل في الحدود وغيرها، وتضادوا في المواضع التي يأخذون منها دليلهم. فبعضهم يغلب رب بيت الطالع، وبعضهم يقول بالدليل المستولي على الحظوظ. واختلفوا، فزعم بطليموس أنه يعلم منها^(٦٨) السعادة بأن يأخذ أبداً العدد الذي يحصل من موضع الشمس إلى موضع القمر، وبيئدئ من الطالع، فيرصد منه مثل ذلك العدد. ويأخذ إلى الجهة التي تتلو من البروج، فيكون قد عرف موضع السهم. وزعم غيره أنه يعدّ من الشمس ثم يبيئدئ من الطالع، فيعد مثل ذلك إلى الجهة المتقدمة من البروج.

واختلفوا فرتبت طائفة منهم البروج، المذكرة والمؤنثة، من البرج الطالع، فعدّوا واحداً مذكراً، وآخر مؤنثاً، وصيّروا الابتداء بالمذكر. وقسمت طائفة أخرى البروج أربعة أجزاء، وجعلوا البروج المذكرة هي التي من الطالع إلى وسط السماء، والتي يقابلها من الغرب إلى وتد الأرض، وجعلوا الربعين الباقيين مؤنثين.

(65) في الأصل: دورسوس. ودورثيوس Dorotheus منجم سرياني عاش في القرن الأول الميلادي. انظر ابن النديم: الفهرست، ص ٣٠.

(66) هو Antioches من منجمي القرن الثاني أو الثالث الميلادي.

انظر، كرلو نلينو: علم الفلك، هامش ص ١٤٦.

(67) في الأصل: ريمسس. وقد ذكر ابن النديم "ذيسموس - Zosimus" وقال إن له كتاباً "سماه المفاتيح في الصنعة، يحتوي على عدة كتب ورسائل على ترتيب .. وتعرف بالسبعين رسالة" ابن النديم: الفهرست، ص ٤١٩. وقد عاش هذا "الكيماوي" في أواخر القرن الثالث أو أوائل الرابع للمسيح. وورد اسمه في "المغني في النجوم" لابن هبنتا "ريمس"، انظر، نلينو: علم الفلك، ص ٢١٩.

(68) في الأصل: منهم.

واختلفوا في الحدود : فزعم أهل مصر أنها تؤخذ من أرباب البيوت. وزعم الكلدانيون أنها تؤخذ من مديري المثليات. وإذا كان اختلاف الذين يعتقدون بهم، في أصولهم، هذا الاختلاف، وليسوا^(٦٩) هم ممن يطالب بالبرهان، ولا [ممن] يعتقد الشيء حتى يصح على البحث والقياس، فيعرفون مع من الحق من رؤسائهم، وفي أي قول هو من أقوالهم، فيعملون به، وإنما طريقتهم التسليم لما وجدوه في الكتب، المنقولة من لسان^(٧٠) إلى لسان، فكيف يجوز لهم أن ينفردوا باعتقاد قولٍ من هذه الأقوال، وينصرفوا عما سواه، إلا على طريق الشهوة والتخمين والله المستعان.

[ذكر بعض ما يستبشع من أقوالهم، ويستدل به على مناقضتهم]

من ذلك زعمهم أن الفلك جسم واحد، طبيعة واحدة، وأنه شيء واحد، وليس بأشياء مختلفة. ثم زعموا بعد ذلك أن بعضه ذكر، وبعضه أنثى. ولا دلالة لهم على ذلك، ولا برهان، ولا وجدنا جسماً واحداً في الشاهد بعضه ذكر وبعضه أنثى. ومن ذلك زعمهم، أنه إن اتفق مولود ابن ملك وابن حجام، في البلد، والوقت، والطالع، والدرجة، وكانت سائر دلالات السعادة موجودة في مولديهما، وجب أن يكون من ابن الملك^(٧١) ملك جليل، سانس، مدبر؛ ومن ابن الحجام حجام حاذق. وهذا يخرج النجوم عن أن تكون تدل على ما يتحدد من حال الإنسان، ويجعلها تدل على حذقه، وصناعة أبيه، وتقصيره فيها. وأبعد من ذلك قولهم إن الكواكب المتحيرة أجلّ من الثوابت، وأبين تأثيراً في العالم، وإن كل واحد من الكواكب الثابتة يفعل فعلاً واحداً لا يزول عنه، من غير أن ينحس أو يسعد، وإن عطارده هو من الكواكب المتحيرة ليس له طبع يعرف، وإنه نحس إذا قارن النحوس، وسعد إذا قارن السعود.

(69) في الأصل: وليس.

(70) في الأصل: اللسان.

(71) في الأصل: المالك.

ومن ذلك قولهم إن قوة القمر الترطيب، وإن العلة في ذلك قرب فلكه من الأرض، وقبوله البخارات الرطبة التي ترتفع إليه منها. وإن قوة زحل أن يبرد ويجفّ تجفيفاً يسيراً، وإن علة ذلك بُعْدُه عن حرارة الشمس، وعن البخارات الرطبة التي ترتفع من الأرض. وإن قوة المريخ مجفّفة محرّقة لمشاكلته لونه للون النار ولقربه من الشمس، لأن الكرة التي فيها الشمس موضوعة تحته. وإن الكواكب الثابتة، التي في الدب الأكبر، قوتها كقوة المريخ، وهذا غلط عظيم، لأن لون هذه الكواكب غير مشبه للون النار، وليست الكرة، التي فيها الشمس، موضوعة تحتها، بل الكرة التي فيها زحل موضوعة تحتها. فهي بأن يكون حالها مشبهاً لحال زحل أولى لأنها فوقه، وبعدها عن الشمس وعن حرارات الأرض أكثر من بعده.

وزعموا أن عطارد معتدل في التجفيف والترطيب، لأنه لا يبعد - في وقت من الأوقات - عن حر الشمس بعداً كبيراً، ولا وضعه فوق كرة القمر، وأن الكواكب الثابتة التي في الجاثي^(٧٢) حالها شبيهة بحاله، وليس يوجد لها، من السبيين اللذين دلا على طبيعة عطارد شيء^(٧٣)، بل الدور يوجد لها ضد ذلك، وهو أنها بعيدة من الشمس في أكثر الأوقات،

(72) في الأصل: الجاني. جاء في "مفاتيح العلوم" أن من بين الكواكب الثابتة في الجهة الشمالية "الجاثي على ركبتيه". (أبو عبدالله محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي: مفاتيح العلوم، تحقيق G.Van Volten، مطبعة بريل، ١٩٦٨، ص ٢١١. وسيشار لهذا المصدر فيما بعد هكذا: الخوارزمي: مفاتيح العلوم. ويقال للجاثي "الراقص"، وهي صورة رجل مَد يده وجثى على ركبتيه. إحدى رجليه على طرف عصا العواء، وهي اليمنى، والأخرى عند الأربعة التي على رأس التتين التي تسمى العوائد". (محمود باشا العسكري: المنتخب النفيس من علم نبي الله إدريس، ط٢، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، ١٩٥٠، ص ١١٣). وسيشار لهذا المرجع فيما بعد هكذا: محمود العسكري: المنتخب النفيس. "ويسمى هذا التجميع النجمي باسم الجاثي أو الراقص أو هرقل Hercules ويضم ١١٣ كوكباً، واحد من القدر الثاني أو بين الثاني والثالث، و ٩ من الثالث و ١٩ من الرابع والبواقي دون ذلك". (يعقوب صروف: بسائط علم الفلك وصور السماء، مجلة المقتطف، القاهرة، ١٩٢٣، ص ١٠٨-١٠٩). وسيشار لهذا المرجع فيما بعد هكذا: يعقوب صروف: بسائط علم الفلك، ويقول في موضع آخر: "في السماء نحو ١٠٠ بقعة منيرة كل منها كالقمر سعة أو أصغر. وإذا نظر إليها بالتلسكوب ظهر أنها مؤلفة من نجوم كثيرة ... من أوضاعها مجتمع الجاثي. وفيه أكثر من ٥٠٠٠ نجم، يرى في الليلة الظلماء الخالية من السحاب والضباب كلطخة بيضاء في السماء". (ص ٨٦).

(73) في الأصل: شيئاً.

وأن فلکها أبعد أفلاك الكواكب من كرة القمر ... وقالوا إن الكواكب التي من العقاب تشبه حال عطارد وزحل في بعض الأوقات، وإن فلکها أبعد أفلاك الكواكب من كرة القمر ... وقالوا إن الكواكب التي من العقاب^(٧٤) تشبه حال المشتري والمريخ في بعضها.

نحن لم ننازعكم في تأثير^(٧٥) الشمس والقمر في هذا العالم بالرطوبة، والبرودة، واليبوسة، وتوابعها، وتأثيرها في أبدان الحيوان والنبات، ولكن [نقول إنهما]^(٧٦) جزء من السبب المؤثر، وليساً بمؤثر تام، فإن تأثير الشمس مثلاً إنما كان بواسطة الهواء، وقبوله للسخونة والحرارة، بانعكاس شعاع الشمس عليه، عند مقابلتها لجرم الأرض. ويختلف هذا القبول عند قرب الشمس من الأرض وبعدها، فيختلف حال الهواء وأحوال الأبخرة في تكاثفها، وبرودتها، وتلطفها، وحرارتها، فتختلف التأثيرات باختلاف هذه الأسباب. والشمس جزء السبب^(٧٧) في ذلك،

(74) في الأصل: النعاد، يقول الخوارزمي: إن من بين الكواكب الثابتة في الجهة الشمالية "الجائي على ركبته" و"العقاب". (مفاتيح العلوم، ص ٢١١). ويحتمل أن تكون الكلمة الصحيحة "العناق"، وهو من النجوم المزدوجة. (يعقوب صروف: بسائط علم الفلك، ص ٨٥) التي تُولف جزءاً من مجموعة الدب الأكبر، إذ تضم هذه المجموعة "بنات نعش الكبرى" وهذه "سبعة أنجم ظاهرة: "النعش" منها أربعة، والثلاثة بنات. ويسمى الأول من البنات "القائد"، ويسمى الأوسط "عناق" .." (أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، كتاب الأنواء، ط ١، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، الهند، ١٩٥٦، ص ١٤٧). ويوجد فوق "العناق" الكوكب الذي تسميه العرب "السها"، وبه تضرب المثل. كما يحتمل أن تكون القراءة الصحيحة للكلمة هي "العناز" Auriga وهي مجموعة نجمية "على هيئة رجل ممسك أعنة بيده اليسرى، وحاملاً جدياً على ذارعه اليمنى، بين الثريا وبين كوكب الدب الأكبر". (منصور حنا جرداق: القاموس الفلكي، المطبعة الأميركية، بيروت، ١٩٥٠، ص ١٢٢). وانظر كذلك، أمين فهد المعلوف: المعجم الفلكي، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٣٥، ص ٢٨.

(75) في الأصل: تأسيره.

(٧٦) في الأصل: ولكن هما.

(77) في الأصل: والسبب جزء الشمس.

(78) اقتبس محمود العسكري هذا الكلام بنصه تقريباً في كتابه "المنتخب النفيس"، ص ١٠٦، دون الإشارة إلى هذه الرسالة.

(77) في الأصل: والسبب جزء الشمس.

والأرض جزء، والمقابلة الموجبة لانعكاس الأشعة جزء والمحل القابل للتأثير والانفعال جزء، ونحن لا ننكر أن قوة البرد بسبب بعد الشمس عن سمت رؤوسنا، وقوة الحر بسبب قرب الشمس من سمت رؤوسنا.

ولا ننكر^(٧٨) أن الشمس إذا طلعت فإن الحيوان، ناطقه، وبهيمة، يخرج من مكانه، وأكنته، وتظهر القوة والحركة فيهم. ثم ما دامت الشمس صاعدة في الربع الشرقي، فحركات الحيوان في الازدياد، والقوة والاستكمال، فإذا مالت الشمس عن وسط السماء، أخذت حركات الحيوان وقواهم في الضعف. وتستمر هذه الحال إلى غروب الشمس. ثم كلما ازداد نور الشمس عن هذا العالم بعداً، ازداد الضعف والفتور في حركة الحيوان، وهدأت الأجساد، ورجعت الحيوانات إلى مكانها. فإذا طلعت الشمس رجعوا إلى الحالة الأولى.

ولا ننكر أيضاً ارتباط فصول العالم الأربعة بحركات الشمس، وحلولها في أبراجها. ولا ننكر أن السودان لما كان مسكنهم خط الاستواء إلى محاذاة ممر رأس السرطان، وكانت الشمس تمر على رؤوسهم في السنة إما مرة وإما مرتين، تسودت أبدانهم، وجعدت شعورهم، وقلّت رطوباتهم، فساءت أخلاقهم، وضعفت عقولهم، وأما الذين مساكنهم أقرب إلى محاذاة ممر السرطان، فالسواد فيهم أقل وطبائعهم أعدل، وأخلاقهم أحسن، وأجسامهم ألطف كأهل الهند، واليمن، وبعض أهل الغرب. وعكس هؤلاء الذين مساكنهم على ممر رأس السرطان إلى محاذاة بنات نعش الكبرى فهؤلاء - لأجل أن الشمس لا تسامت رؤوسهم، ولا تبعد عنهم أيضاً بعداً كثيراً - لم يعرض لهم حر شديد، ولا برد شديد، فألوانهم متوسطة، وأجسامهم معتدلة، وأخلاقهم فاضلة، كأهل الشام، والعراق، وخراسان، وفارس، والصين. ثم من كان من هؤلاء أميل إلى ناحية الجنوب كان أتم في الذكاء، والفهم. ومن كان

(78) اقتبس محمود العسكري هذا الكلام بنصه تقريباً في كتابه "المنتخب النفيس"، ص ١٠٦، دون الإشارة إلى هذه الرسالة.

منهم يميل إلى ناحية الشرق فهم أقوى نفوساً، وأشد ذكورةً. ومن كان يميل إلى ناحية الغرب، غلب عليه اللين والرزانة.

و نحن لا ننكر، ولا ندفع، أن الزرع أو النبات^(٧٩) لا ينمو ولا ينشأ إلا في المواضع التي تطلع عليها الشمس. ونحن نعلم أيضاً أن وجود بعض النبات، في بعض البلاد، لا سبب له إلا اختلاف البلدان في الحر والبرد، الذي سببه حركة الشمس، في قربها^(٨٠) وبعدها من ذلك البلد. وأيضاً فإن النخل ينبت في البلاد الحارة، ولا ينبت في البلاد الباردة. وشجر الموز لا ينبت في البلاد الباردة. وكذلك ينبت في البلاد الجنوبية أشجار، وفواكه، وحشائش، لا يعرف شيء منها في جانب الشمال، وبالعكس.

وكذلك الحيوانات يختلف تكوينها بحسب اختلاف حرارة البلاد، وبرودتها، فإن النسر، والفيل يكونان بأرض الهند ولا يكونان في سائر الأقاليم، التي هي دونها في الحرارة وكذلك غزال المسك، والكركد^(٨١) وغير ذلك.

وكذلك لا ندفع تأثير القمر في وقت امتلائه في الرطوبات، حتى في جَزُر البحار ومدها، فإن منها ما يأخذ في الازدياد، من حين يفارق القمر الشمس، إلى وقت الامتلاء. ثم إنه يأخذ في الانتقاص، ولا يزال ناقصها يستمر بحسب نقصان القمر، حتى ينتهي إلى غاية نقصانه، عند حصول المحاق. ومن البحار ما يحصل فيه المد والجزر، في كل يوم وليلة مع طلوع القمر وغروبه. وذلك موجود في بحر فارس، وبحر الهند، وكذلك بحر الصين. وكيفيته أنه إذا بلغ القمر مشرقاً من مشارق البحر، ابتداءً البحر بالمد، ولا يزال كذلك إلى أن يصير القمر إلى وسط

(٧٩) في الأصل: و. اقتبس محمود العسكري هذا الكلام والصفحتين التاليتين ينصهما تقريباً في كتابه "المنتخب النفيس"، ص ١٠٠ - ١٠١ دون الإشارة إلى هذه الرسالة.

(80) في الأصل: وتقاربها في قربها.

(81) "الكركد" هو "الكركدن".

سواء ذلك الموضع، ابتداء المد من تحت الأرض، ولا يزال زائداً، إلى أن يصل القمر إلى وتد الأرض، فحينئذ ينتهي المد منتهاه. ثم يبتدىء الجزر ثانياً، ويرجع الماء كما كان.

وسكان البحر كلما رأوا في البحر انتفاخاً، وهيجان رياح عاصفة، وأمواج شديدة، علموا أنه ابتداء المد. فإذا ذهب الانتفاخ، وقلت الأمواج، والرياح، علموا أنه وقت الجزر. وأما أصحاب الشطوط والسواحل فإنهم يجدون عندهم، في وقت المد، للماء حركة من أسفله إلى أعلاه، فإذا رجع الماء ونزل، فذلك وقت الجزر.

وكذلك أيام بحرانات الأمراض، بحسب زيادة القمر ونقصانه منطبقة عليها. وكذلك الأخلاط في بدن الإنسان، ما دام القمر، آخذاً في الزيادة فإنها تكون أزيد، ويكون ظاهر البدن أكثر رطوبة، وحسناً، فإذا نقص ضوء القمر، صارت الأخلاط في غور البدن والعروق، وازداد ظاهر البدن يبساً. وكذلك ألبان الحيوانات تتزايد من أول الشهر إلى نصفه، فإذا أخذ القمر في النقصان، نقصت غزارتها. وكذلك أدمغة الحيوانات في أول الشهر أزيد منها في نصفه الأخير. وإن حدث في أجواف الطيور بيض في النصف الأول من الشهر، كان بياضه أكثر من بياض الحادث في نصفه الثاني. وكذلك الإنسان إذا نام أو قعد في ضوء القمر، حدث في بدنه الاسترخاء والكسل، وهاج عليه الزكام والصداع. وإذا وضعت لحوم الحيوانات مكشوفة تحت ضوء القمر، تغيرت طعومها وتعفنت.

وكذلك السمك في البحار، والأنهار^(٨٢) الجارية، توجد من أول الشهر إلى وقت الامتلاء أكثر، وخروجها من قعور البحار والأنهار أظهر، ومن بعد الامتلاء إلى الاجتماع فإنها تدخل قعور البحار والأنهار. والذي يظهر، من سمين السمك، في النصف الأول أكثر من الذي يظهر في الثاني منه. وكذلك حشرة الأرض

(82) في الأصل: الآجام.

يكون خروجها من أجرتها في النصف الأول من الشهر أكثر من خروجها في النصف الثاني.

وأصحاب الغراس يزعمون أن الأشجار والغروس، إذا غرست والقمر زائد الضوء، كان نشؤها وكمالها، وإسراعها في النبات، أحمد من التي تغرس في محاقه وذهاب نوره. وكذلك تكون الرياحين، والبقول، والأعشاب، من الاجتماع إلى الامتلاء أزيد نشوؤاً، وأكثر نمواً، وفي النصف الثاني بالصد من ذلك. وكذلك القثاء، والقرع، والخيار، والبطيخ، ينمو نمواً بالغاً عند ازدياد الضوء. وأما في وسط الشهر، عند حصول الامتلاء، فهناك يعظم النمو حتى يظهر التفاوت للحس في الليلة الواحدة. وكذلك الينابيع تزداد في النصف الأول من الشهر، وتنقص في النصف الثاني، إلى غير ذلك من الوجوه التي تؤثر فيها الشمس والقمر في هذا العالم، فنحن لم ندفعكم عن هذه التأثيرات وأضعافها.

إنما الذي أنكره عليكم العقلاء من أهل الملل، وغيرهم، أن جملة الحوادث في هذا العالم، خيرها، وشرها، وصلاحها، وفسادها، وجميع أشخاصه، وأنواعه، وصوره، وقواه، ومدد بقاء أشخاصه، وجميع أحوالها العارضة لها، وتكوّن الجنين، ومدة لبثه في بطن أمه، وخروجه إلى الدنيا، وعمره، ورزقه، وشقاوته، وسعادته، وحسنه وقبحه، وأخلاقه، وحذقه، وبلادته وجهله، وعلمه، بل ونزول الأمطار، واختلاف أنواع الشجر والنبات، في الشكل، واللون، والطعوم، والروائح، والمقادير، بل انقسام الحيوان إلى الطير وأصنافه، والبحري وأنواعه، والبري وأقسامه، وأشكال هذه الحيوانات، واختلاف صورها وأنواعها، وأفعالها وأخلاقها، ومنافعها، بل وتكوّن المعادن كالحديد، والرصاص، والنحاس، والذهب، والفضة، بل وغير المنطبعة كالمح والبقار، والزرنيخ، والنفط، والزئبق، بل العداوة الواقعة بين الذئب والغنم، والحيات والسباع وبني آدم، والصدقة والعداوة بين أفراد النوع الواحد [لا] سيما بين ذكوره وإناثه، وبالجملة فالأرزاق والآجال، والعز والذل والرفعة والخفض، والغناء

والفقر، والإحياء والإماتة، والمنع والإعطاء، والضر والنفع، والهدى والضلال، والتوفيق والخذلان، وجميع ما في العالم، والأشخاص، وأفعالها، وقواها، وصفاتها وهيأته، والمعطي له هذه، واتصالاتها وانفصالاتها، واتصالاتها بنقط، وانفصالاتها عن نقط، ومقارنتها ومفارقتها، ومسامنتها ومباينتها، فهي المعطية لهذا كله، المدبرة الفاعلة، فهي الآلهة والأرباب على الحقيقة، وما تحتها عبيد خاضعون لها، ناظرون إليها. فهذا كما أنه الكفر الذي خرجوا به عن جميع الملل - وعن جملة شرائع الأنبياء، ولم يمكنهم أن يقيموا بين أرباب الملل إلا بالتستر بهم،، ومناقضتهم، والتزبي بزبيهم ظاهراً، وإلا فقتل هؤلاء من الأمر الضروري في كل ملة، لأنهم سوسها وأعداؤها- فهو من الهذيان الذي أضحكوا به العقلاء على عقولهم. حتى رد عليهم من لا يؤمن بالله واليوم الآخر من الفلاسفة. وزعموا أن القمر والزهرة مؤنثان، وأن الشمس، وزحل، والمشتري، والمريخ، مذكرة، وأن عطارد ذكر أنثى، مشارك للجنسين جميعاً، وأن سائر الكواكب تذكر وتؤنث، بسبب الأشكال التي تكون لها بالقياس إلى الشمس. وذلك أنها إذا كانت مشرقة، متقدمة للشمس فهي مذكرة، وإن كانت مغربة تابعة، كانت مؤنثة. وإن ذلك أيضاً يكون بالقياس إلى أشكالها إلى الأفق. وذلك أنها إذا كانت في الأشكال التي من المشرق إلى وسط السماء، مما تحت الأرض، فهي مذكرة، لأنها إذا كانت شرقية فهي من ناحية مهب الصبا، وإذا كانت في الربيعين الباقيين فهي مؤنثة، لأنها في ناحية مهب الدبور. وإذا كان هذا هكذا صارت الكواكب التي يقال إنها مؤنثة مذكرة، وصارت طباعها مستحيلة، بل تصير أعيانها تتقلب، وإن القمر والزهرة مؤنثان، والكواكب الخمسة الباقية مدمرة على الوضع الأول. فإن تقدم القمر والزهرة الشمس، وكانا شرقيين، صارا مذكرين، وإن تأخرت الكواكب الخمسة، وكانت مغربة تابعة، كانت مؤنثة على الموضوع الثاني. ويصير عطارد ذكراً إذا شرق، أنثى إذا غرب، وذكراً أنثى إذا لم يكن بأحد [ى] هاتين الصفتين.

وزعموا أن القمر، منذ الوقت الذي يهل فيه إلى وقت انتصافه الأول في الضوء، يكون فاعلاً للرطوبة خاصة، ومنذ وقت انتصافه الأول في الضوء إلى وقت الامتلاء، يكون فاعلاً للحرارة. ومنذ وقت الامتلاء إلى وقت الانتصاف الثاني في الضوء يكون فاعلاً لليبس. ومنذ وقت الانتصاف إلى الوقت الذي يخفى فيه ويفارق الشمس، يكون فاعلاً للبرودة. وأي شيء أقبح من هذا، ولا سيما وقد أعطى قائله أن القمر رطب، وأنه يفعل بطبعه لا باختياره. وكيف أن يفعل شيء واحد بطبعه الأشياء المتضادة مرة في الدهر فضلاً عن أن يفعلها في كل شهر. وهل القول - بأن شيئاً واحداً يفعل بطبعه في الأشياء الترتيب في وقت، ويفعل بطبعه التجفيف في آخر، ويفعل الاسخان في وقت، ويفعل التبريد في آخر - ألا كالقول بأن شيئاً واحداً تتقلب عينه وقتاً بعد وقت.

وقالوا في معرفة أحوال أمهات المدن: إن^(٨٣) ذلك يعلم من المواضع التي [يكون] فيها الشمس والقمر، في أول ابتنائها، و[أما] مواضع الأوتاد فهو خاصة وتد الطالع، كما يفعل في المواليد. فإن لم يوقف على الزمان الذي بنيت فيه، فلينظر إلى موضع وسط السماء، في مواليد الولاة والملوك، الذين كانوا في ذلك الزمان، الذي بنيت فيه تلك المدن.

وقالوا في معرفة حال الوالدين: إن الشمس وزحل يشاكلان الآباء بالطبع، وليست أدري كيف تعقل دلالة شيء، وليس مما يتوالد بطبعه، على شيء من طريق التوالد، لأن الأب إنما يكون أباً بإضافته إلى ابنه، والابن إنما يكون ابناً بإضافته إلى أبيه. وإنهم يستدلون على حال الأولاد بالقمر، والزهرة، والمشتري، وإن أحوال الأب تعرف من مولد* ابنه بأن يقام موضع الكوكب الدال عليه، وهو الشمس أو زحل، مقام الطالع. ويستدل على حال الابن من مولد أبيه، بأن يقام

(83) في الأصل: أن.

* في الأصل: مواليد.

موضع الكوكب الدال عليه، وهو أحد الكواكب الثلاثة: القمر والمشتري والزهرة، مقام الطالع. وقد يكون الإنسان في أكثر الأوقات أباً، فيكون (٨٤) الشمس أو (٨٥) زحل يدل عليه من مولد ابنه، وله في نفسه مولد لا محالة. ويمكن أن يكون ربُّ طالع مولده كوكباً، غير الكوكبين الدالين على حاله، من مولد أبيه، فيكون حاله يعرف من ثلاثة كواكب، وثلاثة بروج، مختلفة الأشكال والطبائع. وتتاقض هذا القول بين مستعمله فضلاً عن متوهمه.

وزعم بطليموس: أن الفلك إذا كان على شكل ما ذكره، في مولد ما، وكانت الكواكب في مواضع ذكرها، وجب أن يكون الولد أبيض اللون، سبطاً. وإن وجد مولد في بلاد الحبشة، والفلك متشكل على ذلك الشكل، والكواكب في المواضع التي ذكرها، لم يمض ذلك الحكم عليه ومضى على المولود، إن كان من الصقالبة، أو من قرب مزاجه من مزاجهم. وزعم أن الفلك إذا كان على شكل ما ذكره، في مولد ما، وكانت الكواكب في مواضع ذكرها، فإن صاحب المولد* يتزوج أخته، إن كان مصرياً، فإن لم يكن مصرياً، لم يتزوجها. وزعم أن الفلك إذا كان على شكل آخر ذكره، في مولد من المواليد، وكانت الكواكب في موضع بينهما، تزوج الولد بأمه، إن كان فارسياً، وإن لم يكن فارسياً لم يتزوجها... وهذه مناقضة شنيعة، لأنه ذكر علة ومعلولاً يوجد بوجودها ويرتفع بارتفاعها، ثم ذكر أنها توجد من غير أن يوجد معلولها.

(84) في الأصل: أبيا فكون.

(85) في الأصل: و.

* في الأصل: الولد.

وإذا كان الفلك متى تشكل شكلاً ما دلّ إن كان في مولد مصري، على أنه يتزوج أخته، فذلك سنة كانت لهم، وعادة، وإن كان في مولد غيره لم يدل على ذلك. ونحن نجد أهل مصر في وقتنا هذا قد زالوا عن تلك العادة، وتركوا تلك السنة بدخولهم في الإسلام، والنصرانية، واستعمالهم أحكامها. فيجب أن تسقط هذه الدلالة من مواليدهم، لزوالهم عن تلك العادة، أو تكون الدلالة توجب ذلك في مولد كل واحد^(٨٦) منهم ومن غيرهم، أو تسقط الدلالة وتبطل، بزوال أهل مصر عما كانوا عليه، وكذلك جمهور أهل فارس. وأي ذلك كان، فهو دال على قبائح المناقضة، وشدة المغالطة. وقد رأيت وجههم^(٨٧) بطليموس يقول، في كتابه المعروف "بالأربعة": فيحدث كذا وكذا، ويقول: فإذا كان كذا وكذا، توهمنا أنه يكون كذا وكذا.

(ذكر جمل من احتجاجهم والاحتجاج عليهم)

من أؤكد ما سيتدلون به على أن الكواكب تفعل في هذا العالم، أو [أن] لها دلالة على ما يحدث فيه، أنهم امتحنوا عدة مواليد، صححوا طوالعها، وجماعة مسائل راعوها، فوجدوا القضية في جميع ذلك صادقة، فدلهم ذلك على أن الأصول التي عملوا عليها صحيحة. فيقال لهم: إذا كان ما تدعونه من هذا دليل على صحة الأحكام، فما الفصل^(٨٨) بينكم وبين من قال: الدليل على بطلان الأحكام أننا^(٨٩) امتحنا مواليد، صححنا طوالعها، ومسائل تفقدنا أحوالها، فوجدنا جميعها

(86) في الأصل: أحد.

(87) في الأصل: وجههم.

(88) في الأصل: الفضل.

(89) في الأصل: ان.

(90) سورة "الصفات" الآية ٨٨.

(91) في الأصل: بعد. (92) سورة "الصفات" الآيتان: ٩٠، ٩١.

باطلاً، ولم يصح الحكم في شيء منها. فإن قالوا: إنما يكون هذا لجواز الغلط على المنجم الذي عملها ... قيل لكم: فما تتكرون من أن يكون صدق المنجم في حكمه باتفاق وتخمين، كإخراج الزوج والفرد، وصدق الحزر في الوزن، والكيل، والذراع، والعدد. وإذا كانت الدلالة على صحة مقالكم صدقكم في بعض أحكامكم، فالدلالة على بطلانها كذبكم في بعضها ... فإن قالوا ليس ما قلناه بتخمين، لأننا إنما نحكمه على أصول موضوعة، في كتب القدماء ... قيل لهم لسنا نشك في أنكم تتبعون ما في الكتب، وتقلدون من تقدمكم، وما يقع من الصدق فإنما يقع بحسب الاتفاق. والذي حصلتم عليه هو الحدس والتخمين، بحسب ما في الكتب.

ومما يَسْتَدَلُّ به من ينتسب إلى الإسلام منهم، على تصحيح دلالة قوله تعالى: (فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ، فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ) (٩٠) ولا حجة في هذا البتة، لأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، إنما قال هذا ليدفع به قومه عن نفسه. ألا ترى أنه عزَّ وجل قال بعده (٩١): (فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ فَرَاغَ إِلَى آلِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ) (٩٢)، فبين تبارك وتعالى أنه إنما قال ذلك ليدفعهم به، لما كان [قد] عزم عليه من أمر الأصنام. وليس يحتاج أحد إلى معرفة أصحح هو أم سقيم من النجوم، لأن ذلك يوجد حساً، ويعلم ضرورة، ولا يحتاج فيه إلى استدلال وبحث (٩٣).

(٩٣) يرد بعد هذا نص أوله كلمة "قلت" بتلوها عرض من ابن القيم لما أورده أبو عبدالله الرازي من حجج للقوم من كتاب الله، ويعقب ابن القيم على هذا كله بتعليقاته التي تستمر حتى نهاية الكتاب. وواضح أن رسالة عيسى بن علي - على هذا النحو - ناقصة عبارة أو أكثر، لأنه أتى بجميع ما وعد به في مقدمتها، ولم يبق سوى خاتمة الرسالة، فيما نرجح.